الباب الثالث عشرين

تولية أبى بكر سُنّ على

فتولى ابنه أبو بكر داعو السلطنة فى بلد وتغ ، وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبى بكر الطورى ، وقيل السلنكى من كبار قياد سُن على ، فلما بلغه ذلك الخبر أضمر فى نفسه الخلافةَ وتحيَّل فى ذلك بأمور كثيرة . فلمَّا فرغ من إبرام حبل ذلك الجبل توجَّه إليه فيمنْ كان معه من خواصه ، فغار عليه فى البلد المذكور فى ثانى ليلة من جمادى الأولى فى العام المذكور ، فانهزم جيشه وولَّى هارباً حتى وصل قرية يُقال انكع ، وهى بقُرب كاغ .

فوقف هنالك حتى جمع عليه جيشه ، ثم التقى معه فيها يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الأخرى ، فجرى بينهما حرب شديد وقتال عظيم ومعركة هائلة حتى كادوا يتفانون ، ثم نصر اللهُ تعالى الأسعد الأرشد محمد بن أبى بكر ، وهرب سُنّ أبوبكر داعو إلى ابن . فبقى إلى أنْ تُوفى .

(تولية الإسكيا [1] محمد)

فتملك الأسعد الأرشد يومئذ ، فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . ولَّما بلغ الخبرُ بنات سُن على قالت اسكيا : معناه فى كلامهم لا يكون إياه ، فلما سمعه أمر أن لا يُلقب إلا به . فقالوا : إسكيا محمد . ففرَّج اللهُ تعالى به عن المسلمين الكروب ، وأزال عنهم البلاء والخطوب .

(إصلاحات الإسكيا محمد)

واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنام ، وصاحبَ العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد ، وميَّز الخلق بعد ما كان الكلّ فى أيام الخارجىّ جنديا بين الرعية والجند ، وبعث فى الغور للخطيب عمر أن يطلق المسجون المختار بن محمد نض يأتيه ليرده فى مقامه فأخبر أنه مات .

وقيل : إنه بادر بقتله ساعتئذ ، ثم بعث إلى بير لأخيه عمر ، فجاء فردّه فى مقامه تنبكت كى ، وفى أواخر تسع وتسعين وثمانمائة أخذ زاغ على يد أخيه

---

(١) الإسكيا : لقبٌ عسكرى ، معناه : المسيطر على الحكم بقوة .

كرمن فارى عمر كمزاغ وقاتل بكر مغ ، وفى السنة الثانية من القرن العاشر مشى إلى الحج فى شهر صفر ، والله أعلم .

(رحلة حج إسكيا محمد)

فحجَّ بيت الله الحرام مع جماعة من أعيان كل قبيلة ، وفيهم وليُّ الله تعالى مور صالح جور رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته فى الدارين ، وعكرى الأصل بلده توتا الله الذى فى أرض تندرم رأى الأمير بركته فى ذلك الطريق لَمَّا هبَّتْ عليهم السموم بين مكة ومصر ، نشف جميع ما معهم من الماء حتى كادوا أن يموتوا من الحر والعطش .

بعث إليه فطلب منه أن يتوسل إلى الله تعالى فى السقى لهم بحرمة النبى ﷺ فزجر المرسولَ أشد الزجر ، وقال : حرمته أعظم من أن يُتوسل بها فى حاجة دنيوية ، ثم دعا الله تعالى فسقاهم فى الساعة بغيث ، جاء على وفق المراد .

والجندى الذى ذهب معه ألفٌ وخمسمائة رجل ، خمسمائة فرساناً وألف رَجْلى منهم اسكيا موسى وهك كرى كرى على فلن ، وغيرهم .

وأما المال فثلاثمائة ألف ذهباً الذى أخذه عند الخطيب عمر من مال سُنِّ على الذى تحت يده ، وأما الذى فى داره هو فقد غبر ولم يرضه شيئاً ، فحج وزار وحج معه منْ كتب الله ، وذلك له من أولئك الجماعة فى آخر تلك السنة . وبالغ السيد المبارك مور صالح جور فى الدعاء لأخيه عمر كمزاغ الذى خلفه على مُلكه غايةً ونهايةً ، لأنه يحبه وينفعه ويُكرمه غاية الإكرام .

(عطايا الإسكيا محمد فى الحرمين)

فتصدَّق الأميرُ فى الحرمين من ذلك المال ، بمائة ألف ذهباً ، واشترى جناناً فى المدينة المُشرّفة وحبسها على أهل التكرور [1] ، وهى معروفة هنالك وأنفق بمائة ألف واشترى السلع وجميع ما يحتاج إليه بمائة ألف .

(مبايعة الخليفة العباسى للإسكيا محمد بالخلافة)

ولقى فى ذلك الأرض المبارك الشريف العباسى ، فطلب منه أن يجعل خليفتـــه

---

(١) التكرور : أحد أقاليم غرب إفريقيا ، ويُعتبر جزءاً من أهم أجزاء سلطنة مالى الإسلامية . وأصبح الاسم عَلَمًا على كلِّ ما هو إفريقى .

فى أرض سغى ، فرضى له بذلك وأمره أن يسلم فى إمرته التى هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه فى اليوم الرابع ففعل وجعله خليفته ، وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده ، فكان خليفة صحيحاً فى الإسلام .

(مقابلة الإسكيا محمد للسيوطى)

ثم لقىَ كثيراً من العلماء والصالحين منهم الجلال السيوطى رحمه الله تعالى وسألهم عن أشياء من أموره فأفتوه فيها ، وطلب منهم الدعاء فنال بركاتهم كثيراً .

(توسعات دولة صغى فى عهده)

ورجع فى السنة الثالثة ودخل فى كاغ فى ذى الحجة مكمل السنة فأصلح الله تعالى مُلكه ، ونصره نصراً عزيزاً ، وفتح له فتحاً مُبيناً فملك من أرض كنت إلى البحر المالح فى المغرب وأحوازهما ، ومن حد أرض بندك إلى تفاز وأحوازهما ، فطوع الجميع بالسيف والقهر ، كما سيأتى عند ذكر غزواته .

وكمل اللهُ له مراده فى الجميع ، فكيفما ينفذ حكمه فى دار سلطنته كذلك ينفذ فى جميع مملكته ، طولاً وعرضاً ، مع العافية ، الباسطة ، والرزق الواسع ، فسبحان منْ يخص منْ يشاء بما شاء . وهو ذو الفضل العظيم .

(غزوات إسكيا محمد)

وفى السنة الرابعة غزا غزوة نعسر ، وهو سلطان موش ومشى معه السيد المبارك مور صالح جور فأمره أنْ يجعلها جهاداً فى سبيل الله ، فلم يخالفه فى ذلك وبيَّن جميع أحكام الجهاد ، فطلب أمير المؤمنين إسكيا الحاج محمد من السيد المذكور أن يكون مرسولاً بينه وبين سلطان موش فقبلَ ، ووصل إليه فى بلده ، وبلَّغه رسالة إسكيا فى الدخول فى الإسلام .

فقال له : حتى يشاور آباءه الذين فى الآخرة فمشى إلى بيت صنمهم مع وزرائه ، ومشى هو معهم لينظر كيف شاور الأموات فعملوا ما يعملون من عوائدهم فى صدقاتهم ، فظهر لهم شيخ كبير ، فلما رأوه سجدوا له وأخبره الخبر فتكلم لهم بلسانهم ، وقال : لا أقبل لكم ذلك أبداً ، بل تقاتلونه حتى تفنوا عن آخركم أو يفنوا عن آخرهم .

فقال نعسر للسيد المبارك : ارجع إليه وقُلْ له : ما بيننا وبينه إلا الحرب والقتال ثم قال لذلك الشخص الذى ظهر فى صورة الشيخ بعدما خرج الناس من ذلك البيت : سألتُك بالله العظيم مَنْ أنت ؟ فقال : أنا إبليس أغويهم لكى يموتوا على الكفر .

فرجع إلى الأمير إسكيا الحاج محمد وأخبره بجميع ما جرى . فقال : عليك الآن بالقتال فهمَّ فقاتلهم ، وقتل رجالهم وخرب أرضهم وديارهم وسبى ذراريهم ، فكلُّ مَنْ أتى فى هذا السبى من رجال ونساء صاروا مُباركين ، ولم يكُنْ فى هذا الإقليم جهادٌ فى سبيل الله إلا هذه الغزوة وحدها .

وفى هذه السنة توفى القاضى حبيب رحمه الله ، وولى القضاء شيخ الإسلام أبو البركات قضاء تنبكت وأحوازها ، وحدّثنى منْ أثق به من الإخوان أنه حدثه شيخُ المسلمين الفقيه محمد بن أحمد بغيغ الونكرى حفظه الله تعالى . أن الفقيه أبا بكر بن القاضى الحى هو الذى ولى الأمير إسكيا الحاج محمد على الفقيه محمود أن يوليه القضاء . فقال له : إن هذا الفتى رجلٌ مبارك صالح فولاها إياها . انتهى كلام الشيخ الونكرى .

وخاله الفقيه المختار النحوى غائبٌ حينئذ ، فلما رجع من الغيبة ، لام الفقيه أبا بكر أشدّ الملامة ، فقال له : لم تدله على أبى أليس لك ابنٌ هو أهلٌ للقضاء ؟ فهلا دللتَهُ عليه .

وعمر أبى البركات يومئذ خمس وثلاثون سنة ، ومكث فى القضاء خمساً وخمسين سنة ، وتوفى عن التسعين سنة ، رحمه الله تعالى وأدركته القضاء فى إمامة إمامه جامع سنكرى . ثم إنه سَلِمَ منها فى آخر عمره وولاها ابنَ خاله الفقيه الإمام اند غمحمد ابن المختار النحوى ، ولم يقُمْ بين يدى الناس بعد للصلاة إلا فى وفاة ولى الله تعالى سيدى أبى القاسم التواتى فصلى عليه ، وإلا فى وفاة فياض الغدامسى فصلى عليه رحمهم الله تعالى . ونزل الأمير فى توى فى رجوعه من غزوته نعسر فى رمضان . وفى الخامسة مشى إلى تندرم وأخذ باغن فارى فمات وقيا دنب دنب الفلانى .

وفى السادسة غزا إلى اير وأخرج تلظ فى سلطنة . وفى السابع بعث أخاه عمر كمزاغ إلى زلن ليقاتل ، قام فتى مكى قائد سلطان على الذى على البلد فامتنع عنه ، وما نال منه نيلاً فأرسل الخبر للأمير إسكيا ونزل بمحلته فى تنفرن بلد فى قرب زلن فى جهة المشرق ، وفيه ولد ابنه عثمان فلقّبَ بتفزن ، فجاء الأمير بنفسه فقاتله وغلبه

وخرب البلد ، ورفع دار سلطان على وسبا أهله . وفى هذا السبى جاءت مريم داب والده ابنه إسماعيل ، فتأخر هنالك حتى أصلح البلد ووضعه على غير وضعه الأول ثم رجع .

وفى أول الحادى عشر غزا غزوة برك ويقال له بربو أيضاً ، وفيها نهبت جاريته زاركن بنكى والدة ابنه موسى إسكيا . ومات كثيرٌ من خيار ايبر بند وعفاريتهم فى المعركة بينهما حتى بكى أخوه عمر كمزاغ ، وقال له : افنيت سغى .

فقال : بل عمرت سغى هؤلاء القوم الذين رأيتهم أيطيب لنا العيش فى سفر وهم معنا فيه ، ولا يمكن أنْ نفعل بهم هذا الفعل بأيدينا ، ولذلك أتينا بهم فى هذا الموضع ليتفانوا فيه وترتاح منهم لما عرفت فيهم ، من عدم الفرار للموت ، فحينئذ ذهب عن أخيه ما به من الغم والأسف .

وبهذا التاريخ وُلدَ الفقيه محمد بن أبى البركات القاضى الفقيه محمود رحمهم الله تعالى ولم يغْزُ فى الثانى عشر ، وفى الثالث عشر غزا غزوةَ كلنبوت وهى ملى .

وفى الخامسة عشر مشى إلى الحج شيخ الإسلام القاضى محمود بن عمر واستخلف فى الإمامة خاله الفقيه المختار النَّحوى . وفى القضاء القاضى عبد الرحمن بن أبى بكر بأمر إسكيا الحاج محمد ، ثم رجع من الحج فى السادسة عشر فى السابع والعشرين من شعبان ، ولَّما وصل كاغ سمع به الأمير وهو فى كير يومئذ المرسى المعروف . ركب القارب وتوجه إلى كاغ للقائه ولقيه هنالك .

ثم جاز أبو البركات إلى تنبكت فدخل داره بسلامة وعافية ، فظنَّ كثيرٌ من أهل تنبكت أنه يسلم فى تلك الإمامة لخاله المذكور ، وفى ظهر يوم وصوله جاء إلى المسجد فصلى بالناس .

وأما القاضى عبد الرحمن فبقى فى تلك القضاء ولم يتكلم له الفقيه محمود بشيء إلى عشر سنين ، فأخبر الشيخ أحمد بيكن الأمير إسكيا الحاج محمد بذلك ، فأرسل مرسوله إلى تنبكت ، وأمر أن يخرج منها القاضى عبد الرحمن ويتولاها متوليها الفقيه القاضى محمود . فخرج هذا وتولى هذا .

تذييل :

وقع كلام وخصومة بين القاضى محمد بن أحمد القاضى عبد الرحمن وبين نفع تنبكت كى المصطفى كرى حفيد الشيخ أحمد بيكن ، فشدد فيها القاضى محمد فقال نفع : هذه عداوة من عهد أجدادنا ، حيث فطن جدى الشيخ أحمد الأمير إسكيا محمد عن عمل جدك القاضى عبد الرحمن فعزله ، وهى التى عندك لنا .

وفى السابع عشر ، أرسل الأمير هك كرى كى على فلن ويلمع محمد كرى إلى باغن فرن مع قت كيتا .

وفى الثامن عشر ، غزا غزوة اللعين المتنبى تينض فقتله فى زار وقبلها أدرك الحال أن ابنه الكبير غائبٌ فى غزوة ، فلما سمع ما جرى على والده اللعين هرب ما معه من الجند إلى فوت ، وهو اسم أرض فى قرب البحر المالح لسلطان جلف فسكن فيها ، فبقى يحتال فى غدره ذلك السلطان حتى تمكّن منه فقتله ، وانقسم إقليم جلف نصفين نصفاً يمتلكه كل ولد سلتى تينض ، والنصف الآخر ملكه دمل وهو أكبر قياد سلطان جلف ، فصار فيها سلطاناً عظيماً ذا قوة متينة ، وسلطتهم باقية لذلك إلى الآن .

وهم سودانيون ولَّما تُوفى كل خلفه ولدُه يريم ، ولما توفى خلفه أخوه كلايى تبار ، وهو فاضل خيِّر عدل ، قد بلغ الغاية القصوى فى العدالة ، بحيث لم يُعلم له نظيرٌ فى ذلك فى المغرب بأسرها إلا سلطان على كنكن موسى رحمهم الله تعالى .

ولَّما توفى كلايى خلفه ابنُ أخيه كنت بن يريم ، ولَّما تُوفى خلفه أخوه كلايى تبار ، وقد حاول فى العدالة نصيبه ، فنهى عن الظلم ولا يقبله البتة . وأقام فى السلطنة سبعاً وثلاثين سنة ، ولَّما توفى خلفه ابنه أبو بكر ، وهو الذى فيها الآن .

(نسب تينض مُدعى النبوة)

تينض سلتى ياللب ونيم سلتى وررب ودك سلتى فرهبى وكر سلتى ولرب . خرجوا من قبيلة جلف فى أرض ملى ، ونزلوا فى أرض قياك ، فلما قتل الأمير إسكيا الحاج محمد اللعين رجل الكل إلى فوت ، وسكنوا هنالك وهم فيها إلى الآن . وأما جلف فهم خيار مَنْ فى الناس فعلاً وطبيعة ، وطبائعهم تباين طبائع ساير الفلانيين فى كل وجه .

وخصَّهم اللهُ تعالى بمحاسن الأخلاق ومكارم الأفعال ومحامد السير ، وهم فى تلك الناحية الآن بقوة عظيمة ، ومتنة جسيمة . أما النجدة والشجاعة فليس لهم نظيرٌ فيها . وأما العهد والوفاء ، فمنهم ابتدأت ، وإليهم انتهت فى تلك الناحية على ما سمعنا .

وفى أواخر التاسع عشر ، غزا كشن ورجع فى الربيع الأول فى العشرين سنة ، وفى آخر الحادية والعشرين غزا غزوة العدالة سلطان أكدر ، ورجع فى الثانية والعشرين وفى رجوعه خالف عليه كت صاحب ليك الملقب بكنت ، وسببه أنه لمّا وصل بلده حين رجع معه من تلك الغزوة . انتظر سهمه فى تلك الغنيمة .

فلمَّا انقطع رجاؤه منه سأل دندفارى عن سهمه ، فقال له : إن طلبته لتغوطت فسكت ثم جاءه أصحابه ، فقالوا له : أين سهامنا عن هذه الغنيمة ، ما رأيناها إلى الآن ألا تسألها ؟ فقال : سألتها . قال لى دند فارى إن يحدث سالتا لتغوطت ولا أتغوط وحدى ، وإنْ كنتم تتغوطون معى سألت .

فقالوا : نتغوط جميعاً معك . فقال : بارك الله فيكم ، هذا الذى أريد . فعاد إلى دند فارى فسأله فأبى فخالفوا ، وصار بينهم إلى قتال عظيم فامتنعوا وخرجوا من طاعة الأمير إسكيا الحاج محمد إلى انقراض دولة أهل سغى ، فقام كنت بنفسه .

وفى الثالثة والعشرين ، غزا إليهم فما نالوا منهم نَيْلاً ، وفى الرابعة والعشرين أرسل أخاه كرمن فارى عمر إلى أنْ قام فتى فقتله .

وفى الخامسة والعشرين ، نزل فى كير فى الخامس عشر من رمضان . وفى السادسة والعشرين مات أخوه عمر كمزاغ فى اليوم الثالث من الربيع الأول ، فاحتجب ولىُّ الله تعالى مور صالح جور عن الناس ثلاثة أيام .

ثم خرج فلمّا جلس فى المدرسة قال للطلبة : ففى هذا اليوم ترك الولى ربى عمر وعفا عنه ، وهو يحب هذا السيد ويُنعمه ويُكرمه غاية الإكرام ، والأمير فى سنكرى يومئذ قرية وراء كوكى إلى جهة دند ، وجعل أخاه يحيي كرمن فارى ، وأقام فيها تسعة أعوام ، فتوفى فى فتنة فارمنذ موسى لما خرج باغياً عن والده الأمير إسكيا الحاج محمد .

وفى الثانية والعشرين ، مات عمر بن أبى بكر سلطان تنبكت ، وفى إحدى وثلاثين أرسل أخاه فرن يحي إلى كرر ، ومات هنالك بنك فرم على يمر ، فلمّا رجع بعث على فلن إلى بنك لرفع تركة الهالك على يمر ، وطلب من الأمير أن يولى ابنه بل فرم بنك فرم ، وهو ادك فرم يومئذ فأذن له .

وهو معروف بين إخوته بالنجدة والشجاعة ومن صغار أولاده ، فلمَّا سمع إخوانه الكبار ذلك غضبوا وحلفوا متى جاء كاغ يشقون طبله ، وتلك الرياسة مقامٌ كبيرٌ فى سلطنتهم وصاحبه من أرباب الطبل ، وبقى إخوانه يتكلمون فى أمره بكلام العار حساداً ، إلا فار منذ موسى وحده ، وهو أكبر منهم جميعاً ، فسمع بل جميع مقالاتهم .

فحلف هو على منْ أراد أنْ يشقه طبله يشق هو دبرامه ، فجاء كاغ وطبله بين يديه يضرب حتى وصل موضعاً معروفاً بقرب المدينة ، وهو حد لانقطاع ضرب جميع الطبل إلا طبل إسكيا وحده ، فأمر طبله أن لا يمسك فى عمله إلى باب دار الأمير .

فركب كبارُ الجيش الذين من عاداتهم أن يركبوا للقاء مثله ، وفيهم إخوانه الذين وعدوا بشقة طبله ، فلمَّا وصلهم نزل عن حصانه للسلام عليه كلُّ مَنْ عادته أنْ ينزل لمثله إلا فار منذ موسى سلَّم عليه وهو على حصانه ، وأحنى رأسه له قليلاً ، وقال له: ما تكلمت بشيء ، وقد عرفت إن تكلمت لا بدّ من وفاء كلامى ، وما قدر أحدٌ منهم أنْ يتعرّض بسوء .

فانعقدتْ العداوةُ بينه وبين إخوته بهذا الطلوع ، وبما فاق عليهم فى كثير من المشاهد والمعارك بالجرأة ، وقد أدرك الحال موسى يحيد عن الطريق لوالده الأمير غيظاً عليه وعلى خديمه النصيح على فلن ، مما كان بينهما من المساعدة والموافقة ، وزعم أن الأمير لا يفعل شيئاً إلا بأمره .

وقد عمى فى أواخر دولته ، ولم يفطن أحدٌ به لأجل قرب على فلن وملازمته إيّاه، فجعل موسى يهدد عليه ويتوعده بالقتل ، فخاف منه وهرب إلى تندرم عند كرمن فارى يحى فى السنة الرابعة والثلاثين .

وفى الخامسة والثلاثين ، خالف عليه فار منذ موسى فذهب إلى كوكيا مع بعض إخوانه ، فأرسل الأمير لأخيه فرن يحى فى تندرم أنْ يجيء لتقويم اعوجاج هؤلاء

الأطفال ، فجاء وأمره أنْ يذهب إليهم فى كوكيا ووكّد عليه أنْ لا يبلغ معهم التمريث فوصلهم هنالك ولقوه بالقتال حتى جُرِحَ ، وتمكن منه فسقط على الأرض وخرَّ على وجهه عرياناً ، وجعل يتكلم بما سيكون فيهم من المحدثات ، وداوود ابن الأمير واقفٌ عند رأسه فى مكك الحال مع أخيه إسماعيل ، ومحمد بنكن كرى بن عمر كمزاغ .

فأشار إلى صاحبيه بالبهتان والكذب ، فقال فى تلك الحال مار بنكن كرى . وتصغير هذا اللفظ فى لغتهم أنت الذى تنسب إلى الكذب ، وما ثَمَّ بعد لا تسمعه أبداً يا قطاعاً للرحم . وغطّه إسماعيلُ بالثوب ، فقال وهو فى تلك الحال : عرفت يا إسماعيل لا تفعله إلا أنت ، لأنك وصَّالٌ للرحم .

ثم ثوفىَ فجعل الأمير ابنه عثمان يوباب كرمن فارى وأرسله إلى تندرم ، ثم رجع موسى وإخوته إلى كاغ .

(عزل الحاج إسكيا محمد)

وفى آخر هذه السنة عزل الأميرُ والده ، يوم الأحد يوم عيد الأضحى قبل الصلاة والأميرُ فى المصلى ، فحلف أنْ لا يصلى أحدٌ حتى يتولى الإمرة ، فسلّم له والده ، فكان أميراً ساعتئذ فصلى الناسُ صلاة العيد ، وبقى هو فى داره وإسكيا الوالد فى دار السلطنة ولم يُخرجه منها فى حياته ، ومكث الأمير إسكيا الحاج محمد فى السلطنة ستة وثلاثين سنة وستة أشهر .

(تولية إسكيا موسى)

ثم دخل إسكيا موسى فى قتل إخوته فهرب كثيرا إلى تندرم عند كرمن فارى عثمان يو باب ، منهم عثمان سيدى وبكر كن كرن وإسماعيل وغيرهم ، فاغتمّ لذلك وقال لمُحدِّثيه : إن أخى عثمان عرفته ليس له أمر من نفسه ، إنما يعمل بأمر جلسائه ولا يجالس إلا مع الأرذال والسفهاء ، أخاف من الفتنة بينى وبينه ، فبعث له مرسلوه بكتابه وأعلمه بدخوله السلطنة ، وأعطى المرسول كتاباً آخر لوالدته كمس وذكر له متى لم يقبل الكتاب يبلغ الآخر حينئذ للوالدة المذكورة .

وكتب لها فيه أنه دخل فى حرمتها وفى حرمة أبيه أن يتكلم لعثمان لئلا يكون سببَ الشر بينهما ، فوصل المرسولُ إليه فلم يُبال به ، ولم يلتفت إليه ولم يأخذ الكتاب فبلغ الوالدة كتابها ، فلما قرأته وعلمتْ ما فيه ذهبت إليه وكلّمتْه ، وقالت له : رفعتُ لك

ثديى إلا أنْ تجتنب مخافة أخيك ، وهو ليس لك بأخ بل أب ، وهل عرفتَ سبب هذا اللقب الذى سماك به اليوم الذى ولدتك ، ما فى بيتنا ما يسخن به الشراب لى .

وقد خرج هو فتأخر عن الرجوع إلينا ، فلما جاء قال لـه : أبـوك أيـن ؟ وقلـت : اليوم والصيف هنا ينتظرك منذ أول اليوم ، فأخذ حريشه ومشى إلى الغابـة فاصـطاد لنا ما سخن به الشراب لى ، ولهذا قلتُ لك : هو أبوك ، وها هـو حـسبنى ودخـل فى حُرمتى أن لا تكون سـبب الـشر بينـك وبينـه ، فـسمع لهـا وأطـاع وأمـر بإحـضار المرسول، فقام هو على رجْله وسـأل عـن عافيـة إسـكيا ، وتلـك عـادتهم إذا كـانوا مطيعين .

فقرأ له الكتابَ وعزم المضى إليه وعمَّر قواربه وأكمل أُهْبته ، فخرج للمسير مـع جيشه فعن قليل تغنى مغنيه فأغضبه كثيراً كاد أنْ يتميزَ مـن الغـيظ فقـال لجماعتـه : انهبوا ما فى القوارب ورأسى هذا لا يرفع التراب لأحد أبداً ، فرجع لـداره وخـالف بالحقيقة التى لا شكَّ فيها ، فرجع المرسولُ إلى كاغ وأخبره بما جرى فجهـز للمـسير إلى تندرم .

وقامت الفتنة وتحقق الشر ، فسار بالجيش فلـمّا قَـرُبَ إلى تنبكـت ، فلقـاه شـيخُ الإسلام أبو البركات القاضى الفقيه محمود بن عمر رحمه الله تعالى فى بلد تـرى لكـى يُصلح بينه وبين إخوته .

فلما جلس عنده استدبر السيد ولم يقابله بوجهه ، فقال لـه : لمَ لمْ تـستدبر عنـى ؟ قال : لا أستقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين من إمرته ، فقال لـه : مـا فعلـتُ ذلـك إلا خوفاً على نفسى ، وكم من سنين لا يعمل إلا بما أمر به عـلىَّ ، فلأنِّـى خفـتُ مـن أنْ يأمر على يوماً بسوء ، ولهذا خلعته فطلب منه العفـوَ لإخوتـه ، ويجتنـب الفتنـة بينـه وبينهم لمَا فيه من قطع الرحم والفساد فى الأرض .

فقال له : أمهل واصبر حتى يحترقوا بالشمس ، فـإذا سرعـوا إلى الظـل ، فرفـع لـه الغطاء عن الحرشان [1] الكبار المسمومات ، فقال : هذه هى الشمس وأنت هو الظـل ومتى تألموا يُهرعون إليك فاعفوا عنهم حينئذ .

---

(١) الحرشان : هى السهام .

ولَّما رأى أنه صمّمَ على الشر رجع إلى تنبكت فنهض إليهم من ذلك المنزل ونزل توى وسمع أن كرمن فارى عثمان عزم على المجيء إليه للقتال ، فظهر فى وجهه الرعب والندامة ، فقال بلمع محمد كرى ومع أخيك عثمان رجلان كرن كرن ، والآخر نسيته ولو كان فى ألف رجل مع هذين أو أحدهما ولو فى عشرة آلاف رجل لغلبك ، وإنْ كان الأمرُ بالعكس لغلبته .

وما زالوا فى المجلس حتى رأوا شخصاً فى السراب مرة يظهر ومرة يغيب ، حتى دنا إليهم بكركرن المذكور ، فنزل ورجع له التراب ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : بمحبتك ولا بكُره عثمان إنما جئتُ هرباً من الخسارة ، ولا أكون مع الخاسرين . فقال له : ولِمَ ؟ قال : لأن القومَ جميعاً أصحابُ الرأى ، ثم جاء الآخر مثل ما قال الأول ، ففرح إسكيا موسى ساعتئذ فرحاً عظيماً ، ثم جاء عثمان وغيره وهرب بإسماعيل إلى بير مفشرن كى زوج أخته كين نكس ابن اكل ، وبقى هنالك إلى زمن إسكيا محمد بنكن .

وأما كرمن فارى فهرب وهرب معه على فلن وبنك فرم كل وآخرون ، وانتهى عثمان إلى تمن ، وظل بها إلى أنْ تُوفى سنة أربع وستين وتسعمائة .

وعلى فلن جاز إلى كنو وعزم على الحج ومجاورة المدينة الشريفة ، فحال القدر بينه وبين ذلك ، فتوفى فى كنز .

وأما بنك فرم بل فرجع إلى تنبكت واستحرم بأبى البركات القاضى الفُع محمود ، فبعث إليه وطلب الشفاعة له وهو فى تل ، فقال : جميع منْ دخل فى داره فهو آمن إلا بل وحده . فرفع الكتب التى فى حضرته على رأسه وقال : دخل فى حرمة هؤلاء الكتب بعث بذلك إليه أيضاً فأبى ، فقال : بل لأبى البركات أشهد على بأن جميع ما رأيت ما فعلتها إلا فراراً من أنْ لا اكون قاتل النفس ، ولأنْ يفعل ما بدا له فذهب إليه بنفسه فوور ودخل وصادف بابنه محمد بن إسكيا موسى واقف على رأسه ، ويقول له : يا أبت لا تقتل أبى بنك فرم .

فلما دنا منه تلقاه ابنه محمد المذكور يُحييه ، فقال له : بل يا بنى ولا بد لى من الموت لأن ثَمَّ ثلاث خصال لا أفعلها أبداً لا أقول له إسكيا ولا أرفع التراب له على رأسى

ولا أركب وراءه ، فأمر بقبضه ثم قتله . قيل : قتله فى الفُع كنك مع الفع دنك بن عمر كمزاغ ، وهما ابنا عم وابنا خالة ، أُمّاهما فلانيتان .

أمر بحفر الحفرة حتى تعمقت جداً فى ذلك المكان وجعلا فيها حَيْن وردما فماتا والعياذ بالله ، ثم قتل درمكى دنكر وبركى سليمن ، وجعل محمد بنكن كرى كرمن فارى ، ثم رجع إلى سغى على طريق أرض جنى ، فلما بلغ ترفى تلقاه ولى الله تعالى الفقيه مور مع كنكى مع الطلبة خرجوا من جنج فسلمَ عليه ، ودعا له على عادتهم .

ثم قال له الشيخ : نطلب منك فى حق الله تعالى ورسوله ﷺ أن تعفو عن درمكى وبركى ، وهما بارّان لأهل أرضهما راضينَ عنهما جداً ، وما دخلا فى الفتنة بغرضهما بل بالخوف على أنفسهما قهراً وجبراً ، ولا يقدران أنْ يتخلفا عن فرن عثمان .

فقال له : قد جاوزا بدى وتفوتا . فقال له الشيخ : لا تفعل ذلك ولا ترد شفاعتى . قال : ولا بد . فلمّا أيس الشيخ قال له : قد كنتَ ساكناً فى بلد جنج من زمن سُنٍّ على وما أصبنا راحة وعافية ولا سُكوناً إلا فى ولاية أبيك الأسعد المبارك أمير المؤمنين إسكيا الحاج محمد ، فكنا ندعو له بالنصر وطول العمر ، ونسأل : هل له ولدٌ مبارك الذى فيه رجاءُ المسلمين . قيل لنا : نعم . فسميت لنا ومتى دعونا له ندعو لك بالخلافة بعده ، فتقبَّل الله أدعيتنا ، والآن خيبتَ سعينا وصنعت بالحرمة ما زالت الأكفّ التى رفعنا إلى الله تعالى فى الدعاء لك نرفعها إليه عليك ، وقاموا ورجعوا .

وفى العشية ارتحل إسكيا موسى فخرج ابن فرم إسحق بن الإسكيا الحاج محمد من مقامه ، حتى وصل كرمن فارى محمد بنكن ، فجذبه من ورائه فى مقامه ، فالتفت إليه وقال له : إيش الذى جرّاك على هذا العمل فخرجت من مقامك إلى هنا وتجذبنى من ورائه ، فقال له : الغم من عمل هذا الشيخ الذى فعل بإسكيا وتطاوله عليه ، وما صبر له إلا مَخوف ، فوالله إن كنت إياه ساعتئذ لقتلته ولو كنت أخلد فى النار .

فلما نزلوا للمبيت جاء المتحدثون للسَّمر عند إسكيا على عادتهم ، فحكى كرمن فارى له القصة بحالها التى صورت من ابن فرن إسحق ، فقال إسكيا : والله العظيم ما فى جسمى شعرةٌ واحدة خافت فقط ، ولكن إذا رأى ما رأيت حين أتكلم معه لَمَاتَ من حينه خوفاً ورعباً ، فقال لكرمن : أما رأيت كفّيْه اللذين يرفعهما إلى كتفيه ؟ قال : نعم . قال : يرد لها أسدين على الكتفين رافعين يديهما إلىَّ فارغين شد فيهما ما رأيت مثل عظمهما

ولا مثل أنيابها ومخالبها ، ولذلك أمرته أن يذهب إلى منزله فرجعوا إلى جنج غاضبين عليه .

فلما وصل كاغ شرع فى قتل الباقين من إخوته ، فاغتموا من أمره ، ودخلوا فى الاحتيال فى ذلك إلى يوم واحد قبض فرن عبد الله ابن إسكيا الحاج محمد ، فهو شقيق إسحق فاتفق الباقون جميعاً على أنه إذا قتله يقومون عليه ويقتلونه إلى يوم واحد .

نادى إسحق فوضع بين يديه عمامة وقميصة باليتين ، فقال له : أخوك فرن عبد الله جبان ادخرناه فى موضع فمات من الرعب ، فخرج إسحق إلى عند شاع فرم علو صاى بن الأمير إسكيا الحاج محمد وهو يبكى فأخبره ، فقال : اسكت هل أنت نساء هذا آخر قتله فينا ولا يقتل بعده أبداً .

فاتفقوا وخالفوا عليه قسراً حتى قتلوه فى قرية منصور ، وقتل هو فيها بلمع محمد كرى ، وخلفه بلمع محمد دندمى بن إسكيا الحاج محمد على يد محمد بنكن يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان عام السابع والثلاثين ، ومدته فى السلطنة يومئذ سنتان وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً ، وشاع أن فرم علو المذكور هو الذى باشر القتل .

(تولية محمد بنكن بن عمر كمزاغ)

فتولى السلطان الأسعد الجواد إسكيا محمد بنكن بن عمر كمزاغ يوم موته بالتاريخ المذكور ، وذلك أن إخوته لمَّا اتفقوا على قتله ضمن ذلك لهم الأكبر منهم شاغ فرم علو، فقال : ارميه بالحريش فى الركوب إن أخطأه فار مونى بالحديد أنتم جميعاً لا موت ، وتسلموا من شره فرمى وصادفه فى كتفه الأيسر ، وهو يتحدث واقفاً بركى .

ساعتئذ أمر بمجيئه إلى جنبه فى الركوب فالتفت بركى ورأى الحريش واقفاً فى كتفه والدم يسيل وهو ما التفت ولا جعل نفسه كأنه نزل عليه أدنى شيء لشدقه وقوة قلبه ، فهرب بركى وارادات يقاتل معهم وما تمكنت يده اليسرى من قبض العنان ، فذهب إلى منزله وأخرج الحديد وكوى الجرح وعصب العظم ، وبات تلك الليلة فى الاستعداد للحرب والقتال مع إخوته غداً ، ولم يكتحل بالنوم للغضب والغيظ ويحلف ويكرره أن الدم يسيل غداً ويجرى .

فلما أصبح تخرم وخرج ، وقامت المعركة بينه وبينهم فتقاتلوا وغلبوه وهزموه ، فهرب وتبعوه وقبضوه وقتلوه فرجعوا ، ووجد شاع فرم كرمن فارى فى مقام اسكى بين الأعواد ، وقد أمره أخوه عثمان تنفرن بذلك ليكون إسكيا فأبى وامتنع ، وقال له: لا طاقة لنا بمقابلة هؤلاء القوم ، يعنى أولاد عمه ، فحلف له أن يدخل فيه يدخل هو ولو كان الصغير لا يكون على رأس الكبير ، فدخل وقام مقام إسكيا .

فلما رجع شاع فرم وراءه فيه من بعيد ، فقال : من هذا إلى بين الأعواد لا أكسر شجره برأسى فيأكل أحدٌ ثمارها فاقترب عثمان تنفرن ، فقال : لا خرج بين أعواد إسكيا وضرب رأسه بأعواد حرشانه ، فخرج لمَّا أراد أن يدخل فى ذلك المكان ، رماه عثمان بالحريش من ورائه حتى تمكَّن منه فخرج هارباً ، ورجع محمد بنكن فيه فبايعه الناس وثبت سلطاناً فوصل شاع فرم عند هروبه عند أصحاب المرسى ، وطلب منهم أن يكتموا له الجرح ، فقبضه كومكى وقطع رأسه بالمنجل وأتى به لإسكيا فشكر عمله له ساعتئذ ، وأمهل له مدة ثم قتله وقتل جماعة كثيرة معه من قومه ، ورحل عمّه إسكيا الحاج محمد من دار السلطنة فدخل فيها .

(علاقة الإسكيا محمد بنكن بأفراد الأسرة المالكة)

وبعث به إلى جزيرة كنكاك موضع بقُرب المدينة فى جهة المغرب فسجنه فيها ، وجعل أخاه عثمان كرمن فارى ومكث فيه ما مكث وهو فى السلطنة وبعث إلى بير فى رد إسماعيل فجيء به إلى سغى لأنه صاحبه وحبيه من حين الطفولية فأحلفه المصحف أن لا يبغى فى غدرته أبداً وزوجه ابنه فت .

وأمر بحضور بنات إسكيا الحاج محمد فى ناديته متى جلس فيها كاشفات رؤوسهن ، وتصيح عليه بأن مار فرخ نعامة واحد خير من ماية فروخ دجاجة دائماً .

(مظاهر البلاط فى عهد إسكيا محمد بنكن)

فقام تلك السلطنة أحسن قيام فوسَّعها ، وزيَّنها ، وأجملها بالرجال زيادة على ما كانوا قبل ، وبالملابس الفاخرة ، وأنواع آلات الطرب وبالقينين والقينات ، وكثرة العطايا والمنائح فنزلت البركات فى أيامه ، وانفتح فيها أبواب الأرزاق وانصبت ، لأن

أمير المؤمنين إسكيا الحاج محمد ما فتح صدره للدنيا خشية العين ، وطالما ينهى أخاه فرن عمر عن ذلك ، ويقول له : لا تُعرِّض نفسك للهلاك بالعين .

وأما إسكيا موسى من حين تولى ما صاب راحة ولو ساعة واحدة لأجل عداوة الأقرباء ، وهى أكبر مصائب الدنيا وهى عداوة أبدية لا تحول ولا تزول ، وهو كل ساعة فى مكابدة النفس وشغل الخاطر بالهمِّ والغمِّ والاحتراس وأخذ الحذر حتى مضى لسبيله .

(غزوات محمد بنكن)

والسلطان الأسعد مُولَع بالغزو والجهاد وأكثر منها جداً حتى مَلَّ منه سغى وكرهوه وغزا بنفسه إلى كنت ، فاقتتل هو وكنت فى ونتر ماس اسم موضع ، فهزمه كنت هزيمة فاحشة فهرب مع عسكره وتبعوه حتى حصلوهم فى خضخاض ما نجَّاهم إلا الله تعالى .

ولم يقدر أنْ يجتازه بالحصان فنزل واحتمله على عنقه هيكى [1] بكر على دود ، حتى قطع به المكان ورجع عنهم جيش كنت . وأما جيشه هو فتفرقوا شذرَ مذرَ ، فأينما بات ليل يوم الهروب مدّ له بكر على المذكور رجله وجعل رأسه عليه ، وبقى يتحدث معه إلى أنْ قال هذه الهزيمة الذى طرت على جميع هذه المشقات ، ما أشد على غيظاً مما يقول أهل تنبكت ساعة ولهم خبرنا ، فيقول بعض المرجعين لبعض متى اجتمعوا وراء مسجد سنكرى ، فسمى منهم يوزداى وفلاناً لأنه عارفٌ بجميع أحوال البلد .

وقد سكن فى سنكرى فى نشأته للقراءة : هل سمعتم يا فتيان ما طرا على مرنكن كرى مع كنت . فيقول المستمعون : وما الذى طرا عليه ؟ فيقول المخبر : هزمه هزيمة كاد أن يموت ويموت جيشه كلهم . فيقولون : ما تغوط بعد الذى امتنع لإسكيا محمد هو إلى غزا إليه .

قال لهيكى بكر على دود : هذه مقالاتهم كأنّى أنظر إليهم ثم وصل كاغ ، وما غزا أحد بعد إلى كنت من الأساكى .

---

(١) هيكى : منصب عسكرى ، ومعناه قائد بحرى . وكان مسئولاً عن حماية نهر النيجر .

ثم غزا إلى كرم فلما وصل ساكنهم بعث الطليعة ليطالعوا على الكفار وباتوا بخبرهم وهم قد سمعوا خبره فجهَّزوا لقتاله جاء بير فرجع الطليعة وأخبروه بمجيء الكفار، ثم بعث الطليعة ثانية فرجعوا بقرب وأخبروا بدنوهم ، فبعث لدنكلك وهو ربُّ الطريق يومئذ أن يوقفوا عصبهم .

فوجده المرسول يلعب بالشطرنج السودانى ولا رد باله معه لالتهائه بذلك اللعب ، حتى اقترب الكفار جداً فركب إسكيا بنفسه إليه وهو يصيح إيش هذا الحال والكفار قد دنوا إلينا من تكلم حتى أتم لعبه ، فقام والتفت إليه وقال : اولك يا هذا الجبان لا تستحق أن تكون أميراً ، فعمل ما عمل ساعتئذ من استعمالات الحرب ، فانهزم الكفار وولوا مدبرين .

قال له : ها هم وصلوك افعل بهم ما أردت ، فتبعهم الخيال وهم يقتلونهم إلى الغد ، فخاف منه خوفاً عظيماً ، فلما رجع إلى كاغ عن قليل جاء الخبر بموت كل شاغ، فقال لدنلك : أرانى الله إلا إياك بهذا المكان فأنت كل شاغ ، فقال : ويحك ألم يبق لك مراد الغزو ؟

فقال : بلى ، ولكن ذلك الموضع من أوكد المواضع علينا ولا نختار لها إلا أنت ، قال : ولا بد . قال : على بركة الله ، ولكن لا تجعل خليفتى إلا فلان فانعم له ، فلما ولَّى وبَعُدَ قال : اذهب أنت لا نُبقيك فيها ولا نجعل منْ ذكرت .

ثم إن إسماعيل ذهب إلى عند أبيه فى تلك الجزيرة ليلة واحدة يُسلم عليه ، فلما جلس بين يديه قبض على ذراعه ، فقال له : سبحان الله ، كان ذراعك هكذا تتركنى الناموس يأكل والضفادع تنقز علىَّ وهى أكره شيء عنده ، فقال له : لا جهدَ لى .

قال : اذهب عند فلان واحد من خصيانه واقبض من جسده موضع كذا ، وقُلْ له إذا عرف هذه الأمارة بينى وبينه يعطيك الذى عنده من وديعتى ، اقبضها منه واشتر بها الرجال سراً وهى ذهب ، واذهب عند سوم كتباك واطلب منه الأمانة .

فقال له : قبَّح اللهُ الحريةَ ، ولولاها ما تخرج عندى سالماً ، ولكن متى نلتَ مرادك اقتلنى تلك الساعة ولا بُدّ ولا بد ، وقد عرف إسكيا الحاج محمد أن القصد عزيز عنده وعند أهل قبيلة أجمع يبذلون فيها ولو أرواحهم ما تكلم بعد بخير ولا بشرٍّ .

وقد كان قبل لما خالف عليه هذه القبيلة حتى تمكَّنوا من البلد وخرج هارباً هيكى بكر على دود هو احتال له حتى تمكن منهم مع أناس قلال الذين معه فقتلوهم قتلاً شديداً ، ورجع للبلد فى سلطنته ، ثم جعل أهل سغى يتكلمون فيه فيما بينهم لأجل مللهم صفه ، فلما سمع ذلك يارسنك دبى أخبره به وهو من أحبائه وخاصّته، فما صبر عنه حتى أخرجه لجماعته فى ناديته كأنه لم يصح عنده .

فقالوا له بأجمعهم : ما تقوم من هنا حتى تذكر لنا من يسعى بيننا وبينك بالنميمة. إما أن نختار جماعتنا أو يختاره هو ، فلم يجد بنا إلا أن قال إنه يارسنك دبى فقبضوه ونقشوه بالحمرة والسواد والبياض وركَّبوه حميراً وطوَّقوا به البلد بالنداء والبريحة ، هذا جزاء مَنْ يسعى بالنميمة .

ثم تجهَّز للغزو وخرج ، فلما وصل قرية منصور الموضع الذى تولى فيه السلطنة نزل فيه وبعث دندفارى مار تمز غازياً مع الجيش ، وذلك فى شهر شوال أحد شهور العام الثالثة والأربعين ، فقال له : إنْ نجح سعيك فأنت دندفارى ، وإلا فأنت مارتمز يعنى معزولاً . فقال الله تعالى : يصلحه بحرمة شهر الفطر هذا وشهر الراحة الذى بعده ونرتاح جميعاً إن شاء الله تعالى .

(عزل محمد بنكن)

فسار إلى ذلك الغزو واتبعه كثير من خواصّه ليكونوا رُقباء عليه لئلا يُعزره ، فشرع فى تنفير الرجال بلطف الاحتيال حتى تمكَّن من تدبيره ، فقبض جميع خواصه وكبَّلهم فى الحديد وعزله ، وهو فى قرية منصور الذى تولى فيه السلطنة ، ووافق باليوم الذى تولَّى فيه أيضاً يوم الأربعاء ثانى فى شهر ذى القعدة الذى هو شهر الراحة عند أهل سغى فى العام المذكور ، ولما بلغه الخبر فقال : تكلَّم لى بهذا يومئذ ولم أفهم إلا فى هذا اليوم .